فلسفة الوسطية في العمارة كمنهج إسلامي معاصر

حالة دراسية: المساجد في قطاع غزة

م. إسلام الفالوجي

قسم الهندسة المدنية، كلية الهندسة، جامعة فلسطين، قطاع غزة، فلسطين

ملخص البحث:

منذ بزوغ فجر العصر الإسلامي، بدأ المسجد يلعب دوره الحيوي والفعال في حياة المسلمين، حيث أصبح يمثل مكاناً مركزيًّا ومؤثراً لجميع المسلمين في حياتهم اليومية فهو يرتبط معهم في حركاتهم وسكناتهم، تقام فيه الصلاة والحكم في القضايا وتلقي العلم والتكافل والتواصل الاجتماعي وتمكين العلاقات الأخوية وإعلان النكاح وغيره. في الحديث الشريف "سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، قال: ورجل قلبه معلق بالمساجد" (رواه البخاري، 2/119). هي بيوت الله التي أذن فيها أن ترفع ويذكر فيها اسمه ونتيجة لذلك يقتضي أن يتميز عن بقية البقاع، فعن أبي هريرة أن رسول الله (ص)قال: "أحب البلاد إلى الله مساجدها " (رواه مسلم، 671). كما حظي المسجد باهتمام كبير من حيث التشييد والبناء بدءا من النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من حكام المسلمين حتى يومنا هذا. الجانب الروحي والحسي للدين الإسلامي قد أثر في عمارة المساجد بتكوينه البسيط وتكامل فراغاته وقوة ارتباط أفراد المجتمع به .فقد أصبح الشاهد الأمثل للحضارة المعمارية للمكان وللزمان الذي تم الإنشاء فيه، كما يعكس المستوى الاجتماعي والثقافي والاقتصادي لتلك الفترة الزمنية، حيث كان الهدف من بنائه قوة تأثيره في نفوس المسلمين بالإيمان، وتهيئة الجو الروحي الملائم لأداء الفروض والأعمال الصالحة .

مع مرور الزمن وفي وقتنا الحاضر تراجع هذا الدور تدريجيا، وظهرت بعض المشكلات التي أسهمت في تراجع دور المسجد، كل ذلك كان لأسباب مختلفة من ضمنها ضعف دوره في التخطيط الحضري للتجمعات العمرانية، وسوء التصميم الذي لا يراعي المتطلبات الوظيفية المتعلقة برسالة المسجد بالإضافة إلى عدم المحافظة على توزيع مواقع المساجد ضمن النسيج العام للمدينة والمجاورة السكنية وتصميم مساجد عشوائية على قطع أرضٍ ليست مخصصة لذلك الاستخدام مما أدى إلى ضيق المساحة وسوء في الإضاءة والتهوية والخدمات العامة. كما أدى تأثر جزء من تخطيط وتصميم المساجد بالثقافة الغربية والتي لا تراعي عنصر المسجد كمكان مركزي ينبغي الاهتمام به، مما جعل بعض المساجد تظهر بتصميمها متأثرة بأشكال غريبة مستوحاة من ثقافات طارئة وغريبة على بلادنا. كل هذه الأسباب أثرت بشكل سلبي على إيصال رسالة الإسلام إلى المجتمع وتأثيره فيهم .

تنبع أهمية البحث من خلال تناوله لموضوع ديني مهم يمس واقع المسلمين اليومي، ويمثل عنصرا مقدسا ونقطة إشعاع حضاري للعالم الإسلامي لدى المسلمين. حيث تتناول الدراسة واقع المساجد حاليا بسبب وجود ضعف في تطبيق مضمون مفهوم الوسطية في المنهج الإسلامي على مباني العمارة المعاصرة وخاصة المساجد حيث إن معظم المساجد في الوقت الحالي تبتعد عن روح الوسطية الممثلة بالاعتدال وتميل الى المبالغة والغلاء في الزخارف والتشكيل الخارجي للمسجد ، لذلك دعت الحاجة إلى التطبيق العملي للوسطية والتركيز على المساجد لاسيما بوقتنا الراهن. تكمن أهمية الورقة البحثية في محاولة جادة لتطبيق فلسفة إسلامية واضحة لعمارة معاصرة وخاصة للمساجد والمتمثلة بالوسطية لتكون ركيزة قوية للعمارة في كل مكان وزمان.

تخلص الدراسة إلى الوسطية والتي لا تعني الجمود والانحياز، وإنما هي مصدر وحالة من التطور والإبداع، تحقق بعدا روحيا وعقليا من الاتزان والتوافق والانسجام مع متطلبات الإنسان المعاصرة والمستقبلية، بما يحقق مفهوم الاستمرارية. كما أن التشكيل المعماري للمسجد نابع من منطلق البساطة والهدوء داخليا وذلك لتعميق الشعور بالخشوع في الصلاة تحقيقا للمعنى الإيماني، بحيث لا تشكل الألوان والزخارف تشتيتا للمصلي، فالمنهج الإسلامي ومن خلال الأحاديث النبوية الشريفة أفرز محددات معمارية في التشكيل، وبالتالي يبقى الاجتهاد والابتكار ضمن هذا المحيط الشرعي المحدد.

تتناول الدراسة أربعة مباحث رئيسة حيث تمثل المبحث الأول في مفهوم الوسطية وتطبيق مضمونها بالعمارة الإسلامية، أما المبحث الثاني فيتناول المساجد وتطورها عبر الزمن وصولا إلى وضع المساجد في الوقت الحالي، ويتناول المبحث الثالث الزخرفة وخصائصها كفن مستخدم لعمارة المساجد وماهي ضوابط زخرفة المساجد. اما المبحث الرابع فيتمثل في دراسة مقارنة بين المساجد انتهاء بالنتائج.

كلمات مفتاحية:

مفهوم الوسطية– فن التجريد– المساجد– الزخارف الإسلامية– قبة الصخرة– مسجد السيد هاشم.

The Islamic moderate philosophy in Islamic architecture
A case study: Gaza Strip's Masjids

Abstract

Since the dawn of the Islamic era, the masjid has been playing a vital and effective role in the life of Muslims. It has become a central and influential place for all Muslims in their daily lives, which is associated in their movements and Stillness. The masjids hold prayers, resolve governance issues, receive science, as a place for socialization, enable the fraternal relations, and the perform marriages.

DOI:10.12816/0036551

Abu Hurairah (May Allah be pleased with him) reported: The Prophet Mohammed (PBUH) said: "Seven are (the persons) whom Allah will give protection with His Shade on the Day when there will be no shade except His Shade (i.e., on the Day of Resurrection). One of them, he said, a person whose heart is attached to the mosque." (Book one, Hadith 659) (Bukhari, 119/2). God's houses are authorized to raise and stating his name. As a result, it needs to be different from the other parts of the ground. Abu Huraira narrated that the Messenger of Allah said, "The dearest parts on the face of the earth near Allah are its mosques" (Narrated by Muslim, 0.671).

Masjid also received a considerable attention in terms of construction and building starting from our Prophet Mohammed (PBUH) and the subsequent Muslim rulers until the present days. Islamic spiritual and the sensual aspects have influenced the architecture of masjids by the simple configuration of masjid, integration of its spaces, and strength correlation between its members.

Masjids have become optimal witness to the architectural culture of the place and age that it has been constructed. It has also reflected the level of social, cultural and economic development for that period. The aim of the construction of masjids: strengthen faith in the hearts of Muslims by creating a spiritual atmosphere appropriate to the performance of the pillars and the Good works.

Over time until the present, the role of masjids gradually declined, and the number of worshipers decreased. Some of the problems emerged that contributed to the declining role of the masjids includes weakness in the urban planning of urban communities, poor design that does not take into account the functional requirements related to the message of the masjid as well as failure to maintain the location of masjid within the residential areas and public domain of cities. In addition to that, random building for masjids on pieces of land that are not intended for that use led to a lack of space as well as poor lighting, ventilation and public services.

Design of masjids have been affected by foreign culture, which do not take into account the masjid as a central place, making some design of masjids influenced by exotic forms inspired by cultures alien to Islamic notion. All of these reasons had a negative impact on the delivery of the message of Islam to the community and its influence on them.

The importance of research originates by approaching an important religious subject that touches Muslims' life daily, and represents a sacred element and the center of Islamic civilization for Muslims. This study addresses the status of masjids nowadays because of weakness in the application of the concept of moderation in the Islamic approach to contemporary architecture construction, especially the masjids. Most of the masjids in this time are far away from the spirit of moderation and tend to exaggerate and hyperbole in the decoration and external configuration of the masjid. As a result, the need for practical application of Moderation and practical focus on mosques arises nowadays. The importance of the paper lies in a serious attempt to implement a clear Islamic philosophy to contemporary architecture, especially for the masjids represented by moderation concept, to be a strong cornerstone for architecture in every place and every time.

The study concludes that moderation does not mean inertia and bias, but rather a source and a state of evolution and innovation. Moderation realizes spiritually and mentally dimensions of balance, harmony, and compatibility with contemporary and future requirements of humanity, in order to achieve the concept of continuity.

Architectural configuration of the mosque stems from the perspective of internal simplicity and tranquility, to deepen the sense of supplication in prayer in order to achieve the meaning of faith. As a result, colors and decorations should not constitute a distraction for a worshiper. Through the Islamic curriculum and the Hadith, there are architectural determinants in the formation of masjid, and thus diligence and innovation remains within a defined legitimate framework.

The study addresses four main sections, the first section represent the concept of moderation and its application in the content of Islamic architecture. The second topic dealt with the masjids and their evolution over time until its status in the present time, the third section demonstrates decoration and characteristics should use as art in masjids and what controls should take for this decoration. The fourth section is a comparative study between the old masjids in addition to findings and recommendations.

مقدمة البحث

العمارة هي نتاج الفكر والثقافة الانسانية، وقد تنوع الإنتاج الشكلي المعماري بتنوع الفكر والرؤية الإنسانية للكون والحياة، ونتيجة لتواتر الفكر المعماري عبر العصور المختلفة، ظهرت التيارات الفكرية المعمارية المختلفة (العواودة، 2009)، وقد وجدت حالة التناقضات في فهم العمارة ما بين حدية الفكر بين التفكيك والتقليد دون النظر في فكر الوسطية. الوسطية في الإسلام تمثل خصيصة للمنهج الإسلامي، وبالتالي يأتي الربط بين فلسفة الوسطية وبين الفكر المعماري الاسلامي كنتاج للحضارة الاسلامية .

تمثل الوسطية الإسلامية الموقف الأصعب لعدم الانحياز لموقف قطبي واحد، فالوسطية الإسلامية ذات خصائص مميزة تجعلها مختلفة عما ذكره أرسطو لمفهوم الوسطية ، وقد تبنى بعض العلماء المنهج الوسطي الفقهي، حيث تم تفسيرها على أنها اتجاهاً

للربط بين الدين بثوابته مع العصر المتطور بمقتضياته ومتطلباته المتغيرة. تنبع الوسطية الإسلامية من خلال الوسطية بين الفكر والمادة والتي تنعكس على التفكير المعماري من خلال الشكل والمضمون.

يدرس البحث فكرة تطبيق الفلسفة الوسطية من خلال إيجاد الفكر المعماري المستمد من الفلسفة الوسطية الذي يمثل منهج حياة متكامل ومنهجية الفن المتمثلة بالوحدات الزخرفية الهندسية الإسلامية في المساجد والتي تمثل أروع سمات ومراحل النتاج الفكري للعمارة الإسلامية.

منهجية الدراسة:

تم اتباع المنهج التحليلي والاستدلالي، من خلال دراسة الفن التجريدي وتطبيق الفلسفة الوسطية من خلال تحليل تصميم المساجد للوصول إلى مفهوم وجوهر الفن الزخرفي الإسلامي للخروج بنتائج ممكن أن تكون أرضية لتطبيق مفهوم الوسطية للفكر المعماري. واشتملت منهجية الدراسة على مسارين، المسار المعلوماتي والمتعلق بالوصف النظري للفكر الوسطي، والتوجهات الفنية التجريدية بالمفهوم العام الغربي المتمثل بموندريان وكاندنسكي، والتوجه الإسلامي المتمثل بزخرفة المساجد، أما المسار الثاني فيتمثل فى الربط بين البعد الفلسفي المتمثل فى الوسطية مع التشكيل الزخرفي وخصائصه، لإخراج عناصر التشكيل المعماري الوسطي من اندماج للحالتين.

أهمية الدراسة:

ترجع أهمية البحث إلى تناوله موضوعاً في غاية الأهمية، ألا وهو تعريف إطار عام يحدد الخصائص المستمدة من الفلسفة الوسطية كأحد سمات المنهج الإسلامي، وربطها بالفن التجريدي كأساس فلسفي وفني لتوجه معماري إسلامي حديث متمثل فى الوحدات الزخرفية الخاصة بعمارة المساجد.

مبررات الدراسة:

تأتي هذه الدراسة لتسليط الضوء على جوهر العمارة الإسلامية المرتبط بفكر الفلسفة الوسطية وهو حالة من الابتعاد عن تناقضات استخدام العمارة الغربية التي جعلت بعض المساجد تظهر بتصميمها متأثرة بأشكال غريبة مستوحاة من ثقافات طارئة وغريبة على بلادنا (شحادة، 2010)، والتي لا تراعي عنصر المسجد كمكان ينبغي الاهتمام به. بحيث أثرت بشكل سلبي على أهمية المساجد في إيصال رسالة الإسلام إلى المجتمع وتأثيره فيهم .بالإضافة إلى الفهم غير الدقيق للمنهج الإسلامي، والذي يعود إلى التطرف والابتعاد عن الروح الوسطية الممثلة فى الاعتدال والانسجام ورفض الغلو، وتمثل الوسطية حالة موجودة في حضارتنا وعقيدتنا، ولكن بحاجة إلى التطبيق العملي والذي يتمثل بفن العمارة الإسلامية لا سيما بأهم عنصر بها وهو المساجد ؛ لذلك كان لابد من اجتهاد هذه الدراسة لإظهار مرونة المنهج الإسلامي.

أهداف الدراسة :

- تعميق المفهوم الخاص بالوسطية والنظر إليها كمنهج وفلسفة للحياة الإسلامية.
- توضيح تطبيق الفلسفة الوسطية في العمارة كأساس فلسفي وفني للفكر المعماري.
- إظهار عمق ومرونة الحضارة الإسلامية المتمثل فى العمارة الإسلامية، ومدى وصلاحية المنهج الإسلامي لكل زمان ومكان.

حدود الدراسة:

تعد الزخارف الهندسية في الحضارة الإسلامية طبيعة فريدة تميزت به عن الحضارات الأخرى وركزت الدراسة على العلاقة ما بين الفن التجريدي والزخارف الإسلامية، بمعنى أن حدود الدراسة تشتمل على دراسة الوحدات الزخرفية للمساجد في قطاع غزة كحالة دراسية ومدى تطبيقها أو عكسها للمنهج الفلسفي للوسطية.

محتويات الدراسة:

تنقسم الدراسة في ثلاثة اتجاهات، الاتجاه الأول المتمثل فى النظرة الفلسفية لمفهوم الوسطية الإسلامية، أما الاتجاه الثاني فيمثل النظرة التجريدية الفنية المتمثلة بالوحدات الزخرفية الهندسية، أما المجموعة الثالثة فهي الناتج من التحام الفلسفة المتمثلة بالوسطية والفن المتمثل بالزخارف الإسلامية الهندسية، ليشكل مفهوما وإطارا فلسفيا وفنيا متمثلاً فى الاتجاه الوسطي المعماري في المساجد.

مفهوم الوسطية:

لقد شكلت الوسطية أساسا في الفلسفة الإغريقية بما تحققه من انسجام وتناسب (العواودة، 2012)، إن الوسطية عند أرسطو هي الالتزام بالوسط عند اختيار الأفعال المحددة بالفضيلة وأسلوب حياة بين ذات الإنسان الصالح الخير وبين مجتمعه، وهي تعبير عن توازن فيما يخص العلاقة مع الآخر، وقد حددها على أنها العيش بتوازن واعتدال (غاردر،1996).

تشكل الوسطية الاسلامية توازناً رفيعاً تمثل الفطرة الانسانية الرافضة للغلو والتطرف والظلم. وتعرف الوسطية الإسلامية على أنها تصور جامع غير مغلق،" بمعنى أنها لا تشكل نقطة الوسط الرياضي لتحافظ على مسافات ثابتة متساوية بين القطبين بقدر ما تشكل نقطة تحمل من كلا القطبين سماتهما بكل تناسق وتناسب لتشكل موقفا ثالثا يمثل الاعتدال"(عمارة،1991)، وهي بذلك تكون وسطية جامعة، فهي تمثل الشجاعة ما بين الجبن والتهور، فهي تجمع ما بين الحذر والإقدام، وتمثل الكرم ما بين الإسراف والشح، فهي تجمع ما بين العطاء والتدبير (العواودة، 2012).

كما تعد الوسطية الاسلامية خصيصة أساسية للمنهج الإسلامي وصفة للأمة الإسلامية قال تعالى في منتصف (وسط) سورة البقرة" وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا "(سورة البقرة، آية 143). ولقد أخرجت الوسطية الإسلامية بتوازناتها الفكر الإسلامي من حالة التناقضات، إلى حالة جامعة تشكل منهجا ومرجعا بتوازن فريد . أما الوسطية في علم الفقه فهي قاعدة من القواعد الأربع التي يجب على المفتي أن يعرض مشروعه الفقهي الاجتهادي عليها ؛ وذلك لتشكل نتاجا موضوعيا متوازنا لفتواه، وهذه القواعد هي "الوسطية والنسبية والتكافؤ مع حركة الحياة والتجانس مع قانون التاريخ" (الراشد، (بدون تاريخ)) .

تمثل الوسطية الإسلامية أيضا حالة جامعة بين الاتزان والتصلب، "فالوسطية تعني الاتزان والتعادل والقدرة على التحكم في الأطراف "(حنفي، 2005)؛ لذا فحالة الوسطية هي اقتراب الفقير من الغني بإعادة توزيع جزء من ثروة الغني في النظام الاقتصادي الإسلامي وليس بالمفهوم الرياضي بتساوي الغني والفقير رغم عدم تساوي الكفاءات والقدرة والنشاط (العواودة، 2012) .

ويعد الدكتور القرضاوي من المتبنين للمنهج الوسطي الفقهي، ويفسرها القرضاوي على أنها "اتجاه مدرسة الوسط أو الاتجاه المتوازن المعتدل الذي يجمع بين اتباع النصوص ورعاية مقاصد الشريعة، فلا يعارض الكلي بالجزئي ولا القطعي بالظني .... فهو يجمع بين محكمات الشرع ومقتضيات العصر " (الراشد (بدون تاريخ)) .

فلسفة الوسطية والعمارة الإسلامية:

بدأت العمارة منذ فجر التاريخ في البحث في البيئة المحيطة عن مواد تشكل المنشأ المعماري، ومع التقدم التكنولوجي واستحداث مواد بناء جديدة، بدأت هذه المواد تأخذ موقعها وتحل محل طرق البناء التقليدية وتركز فقط على ارتفاع وعظمة البنيان في عمارة المساجد، وجعل العمارة سوق عالمي لتسويق هذه المواد والطرق الإنشائية الجديدة كنوع من الاستثمار بغض النظر عن المفاهيم الأساسية الأخرى بالرغم من حرص المسلم على أن تكون لوحاته المعمارية بالغة الدقة والإبداع (العواودة، 2012).

جاء مفهوم فلسفة الوسطية لتمثل حقيقة التطبيق السهل للسلوك الإنساني الوسطي، دون أن يشكل ذلك عبئاً على نفسية المسلم، مما يشكل حالة محفِزة لبلوغ الحالة الإيمانية والتخلي عن حالة التثبيط من الغلو والتعنت والثقل من تحقيق السلوك الإيماني السهل، وبالتالي فتحقيق الوسطية تشكل نفسية إيمانية مرتاحة دون قلق أو كبت. مما يخلق الحاجة التي تؤدي إلى التطور الوظيفي للفراغات المعمارية بالإضافة إلى الرغبة الإنسانية والدافع الإسلامي للابتكار، وهذا ما يحقق المرونة وتحقيق ما هو أفضل وأجمل فنيا وماديا.

من المهم أن يذكر أن مفهوم الوسطية لا يعني بالضرورة نقطة الوسط بمفهومها الرياضي وإنما يتعدد مفهومها ويعتمد على طبيعة تلك الوسطية ، سواء من ناحية فقهية أو اجتماعية أو نفسية أو معمارية ، وبما أن الوسطية الإسلامية تشكل حالة جامعة تتشكل باجتماع متناسب متناسق لحالات ثنائية متضادة ، ودمجها في قالب حيوي واحد ، فإن البحث عن الفكر المعماري الوسطي سيكون من خلال العلاقة بين الشكل والمضمون، كحالة بين الأشكال المادية والوظيفية ذات الالتصاق الحسي بالإنسان مع ما تقدمه هذه الأشكال من امتداد روحاني يحقق رضاً داخلي .

الدكتور محمد عمارة أحد مفكري العالم الإسلامي المعاصر، وله مؤلفات في الفن والجمال الإسلامي، ويرى أن القرآن الكريم ومن خلال آياته ذات الجماليات الفنية الإبداعية والتي تتحول إلى التمثيل بالصور المحسوسة "ينمى إبداعها الحاسة الفنية للمتدبرين والمتفكرين " (عمارة،1991م)، وهذه الصورة الحسية للمعاني والأفكار تشكل لوحات فنية بالتمثيل والتصوير.

إن دراسة الشكل والمضمون في العمارة سيكون من خلال دراسة المادة والروح كتعبير أكثر شمولية، فالروح تكون فيما تحققه الأشكال المادية أو من خلال البعد الروحاني في التشكيل الوظيفي، بمعنى أن الروح يمكن التعبير عنها وتحقيقها في الشكل من خلال التكوينات الشكلية أو من خلال المضمون الذي يمثل الوظيفة بالبعد النفسي والاجتماعي .إن إنتاج الفكر المعماري الوسطي بحالته الحيوية بين المادة والروح التي تحقق فهما وإنتاجا للشكل والمضمون ستمثل التركيبة المعمارية من تعبير وتكوين ويمثل الشكل الفني، التعبير والتشكيل والتخطيط للفكرة، أما معماريا فالشكل يعني المكونات المادية والتي تحدد الفراغ وتعطيه بعدا حجميا،

وقد تم نقاش الشكل والمضمون في حلقات السيرة التاريخية للعمارة، وقد ظهرت في عدة حالات: الحالة الشكلية، والتي تمثل طغيان الشكل على المضمون. الحالة الوظيفية: بمعنى طغيان الوظيفة على التركيبة الشكلية، والذي يعكس قاعدة (الشكل يتبع الوظيفة)، يقول لويس سوليفان: "إن الوظائف تبحث عن أشكالها، والأشكال هي المظهر الخارجي للقوى والاحتياجات الداخلية"، حيث تم عكس أداء الآلة على العمارة من خلال التكوين الشكلي نتيجة للوظائف المادية، وهذه الحالة لا تمثل العمارة بقدر ما تمثل تركيبة خالية الروح والحياة، وإنما تحقق بعدا ماديا. وأخيرا التوازن والتوافق ما بين الشكل والوظيفة: وهو ما ظهر في الفكر المعماري العضوي للمعماري (رايت)، الذي قال: إن الشكل هو الروح في صورة مادية متجسدة، وهو نتيجة لتلك القوة الحية الأبدية التي تجعل من العمل الفني (فنا روحيا) ، من خلال ولادته نتيجة ملاءمة معطيات التصميم لفكر المعماري، بمعنى تلاؤم المعطيات الداخلية للتصميم التي تشكلها البيئة والوظيفة ليكون نتاجا منطقيا لهذه العوامل وليس شكلا تفرضه العوامل الخارجية.

وقد أوضح إبراهيم أن الوسطية في العمارة هي مقياس للكم والكيف، فالفراغات المعمارية يجب أن تخضع لمعايير تصميمية تتناسب ومتطلبات المجتمع الإسلامي كما أنها وسطية في الإنفاق بارتباطها بدراسة الجدوى الاقتصادية للمنشأ باعتدال، ويذكر كذلك أن الوسطية تكون في استخدام الزخارف واستعمال النظم الإنشائية للزمان والمكان والإمكانيات الفنية والتنفيذية المتاحة .كما يرى إبراهيم أن منهج الوسطية يكون من خلال توفير الوحدة المعمارية حتى تتكامل الجزئيات مع الكليات، ويظهر التعبير المعماري للوسطية من خلال بساطة التصميم وعفويته، حيث يصبح التصميم المعماري انعكاسا صادقاً للوسطية في طرق الانشاء واستعمال المواد واقتصاديات البناء التي تتناسب مع المقومات الطبيعية والاجتماعية والتراثية السائدة في المكان .وظهرت الوسطية في فكر إبراهيم كحالة بين تناقضات العصر كالإسراف والتقتير ، وبين بساطة التكوين المعماري وبين صخبه واضطرابه. (عبد الباقي، 2005م).

ظهرت الوسطية بما تحمله من سمة للاعتدال والتوازن في دراسة محمد أحمد الراشد في كتابه آفاق الجمال، في تشكيلات اللوحة الفنية الإسلامية والتي حدد عناصرها باستخدام متوازن معتدل ومثلت رموزاً إسلامية تعكس الفكر والتصور الإسلامي للفن، كالشمس رمزا للشروق والتجديد والحيوية ، والسيف رمزا للقوة والتحدي، والقرآن رمزا لدستور الأمة ومنهجها، واستخدام المشربية والقباب والنوافذ الإسلامية ذات الدلالة للتعمير والحضارة الإسلامية، ويأتي دور الفنان في أسلوبه في التشكيل والتكوين للفكرة الفنية، وبالتالي ظهرت الوسطية في رمزية اللوحة ذات البعد الإنساني المعتدل بعيدا عن التعقيد والإفراط والغلو. (محمد أحمد الراشد).

الفن والتجريد في التجربة الإسلامية والغربية:

<u>التصور الغربي لفن التجريد</u>

التجريد هو ذلك الفن الذي يعبر فيه الفنان بالعلاقات الخطية واللونية عن العواطف والأحاسيس والأفكار، ويطلق مصطلح التجريد على الاعمال التي لا تحمل شكلا مباشرا من الواقع وإنما بدلالات خطية في نمط جديد في التعبير بالخطوط والألوان، وقد أخذ بعض النقاد على هذه التسمية معتبرين أنها الصفة العامة لكل الفنون الحديثة التي لا تشمل على موضوع أو فكرة. والمدارس الفنية للفن التجريدي تمثل جزءاً وانشطارية للفكر الوسطي من أهمها المدرسة التجريدية لكاندنسكي والمدرسة الفنية لموندريان، بحيث كانت أول ما أظهرت التجريد كمذهب فني أظهرت توجهات متناقضة بين التعبير الفني بين المادة والروح.

موندريان يشكل توجها رياضيا ومرجعية فنية لتوجه معماري متمثل بدي ستايل حيث استسلم لواقعه المادي ، ويسعى للوصول إلى عالم الحقيقة الذي يكمن وراء الطبيعة الذي يأتي من خلال الاختزال العام للأشكال الطبيعية المرئية الى مجموعة من الاشكال الهندسية والخطوط والمساحات اللونية الرياضية؛ لذا فهو يقدم دالاً متفق مع المدلول المتمثل في البناء الرياضي الماورائي في

حين أن فن كاندنسكي يشكل توجها روحيا ذاتيا للمفهوم الذاتي النسبي، وتأخذ أشكاله الفنية أشكالا عضوية وبهلوانية متحولة تفتح مساحة كبيرة للتأويل ، فهو يقدم دالًّا بلا مدلول اتفاقي محدد ، فهو يمثل الأساس الفني للتوجه الذاتي الروحاني.

التصور الإسلامي للفن التجريدي:

يظهر مفهوم الفن الإسلامي بتصور محمد قطب على أنه "هو الفن الذي يرسم صورة الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود ...هو التعبير الجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان " (قطب، ص6). لقد مثلت تجربة الحضارة الإسلامية على مر المراحل التاريخية، إبداعا للأمة الإسلامية على المستويين الثقافي والمدني. فالجمال ليس حالة استثنائية متقوقعة في الإسلام، وإنما هي صفة الخالق سبحانه أوجد صفته فيما خلق في الكون والحياة، وأظهرها سبحانه بروعة الصور الفنية الجمالية في القرآن الكريم" إن الله جميل يحب الجمال". إن آيات الجمال في مخلوقات الله سبحانه وتعالى تشكل منبعا لنعم الإنسان والتمتع بها، فالجمال هو صورة إلهية عامة أمر الله الإنسان أن يبصر بها ويتفكر، فهي تعزز الشعور بقدرة الله سبحانه وتعالى في النفس الإنسانية. وللأمة أولويات تتحدد حسب الزمان والمكان، وبالتالي فهي جزء من تحقيق التكامل والانسجام والرضى على مستوى الحياة الإسلامية لتكون بنسق متوازن معتدل تمثل فلسفة الإسلام كمنهج للحياة، ولم يدعو الإسلام للتقشف والعيش بخشونة وسكون، وإنما خضعت حالة التقشف والخشونة نتيجة البيئة المحيطة، فالبادية في عهد الخلفاء الراشدين مثلت حالة خشنة ذات تركيبة حياتية قاسية، ولم يظهر ذلك في الشام في العهد الأموي.

إن الشخصية الإسلامية العصرية، ذات النظرة الشرعية الدقيقة الحيّة التي تعتقد بمرونة الإسلام ومنهجه، فإنها بلا شك لا تتخاصم مع الفنون الجمالية بناء على النظرة الإسلامية للفنون، فالفنان المسلم لديه موقف وتصور عن الكون والحياة بمادياتها الحية والجامدة، وتتسع مساحة إحساسه الفني من خلال إدراكه للروح السارية في هذا الكون، والتي لا تجعل هذا الكون جامدا، بل تجعله يتسم بالحركة والإحساس والعاطفة للمشاعر المنبثقة عن هذا التصور، والتي تخلق انفعالات خاصة بذلك .

ينبع التصور الإسلامي للتجريد من التصور الإسلامي للوجود، الذي يرجعه للوحدانية المطلقة لله سبحانه وتعالى، وبالتالي فإن التصور الإسلامي للتجريد يخرج عن الإطار المادي البحت إلى إطار قائم على ثوابت غيبية تتجلى في الوحي الإلهي؛ ولذلك فإن التصور الإسلامي للحياة هو الوسطية ما بين المادية البحتة والروحانية. يمثل البحث دراسة تحليلية للوصول إلى العلاقة ما بين فن التجريد كسمة فنية وفلسفة الوسطية كأهم خاصية في التصور الإسلامي للإطار المعماري الإسلامي الحديث المتجسد في الزخارف الفنية الجامعة ما بين المادة والروح الموجودة في الزخارف في المساجد.

الزخارف الإسلامية والتعبير الفني التجريدي :

يمثل التجريد الحالة العامة للفن الإسلامي في اتجاهاته المختلفة، فظهر في الخط العربي والأرابيسك والزخارف، وهو لا يتعامل مع لوحة فنية بأبعاد محددة وشعور ضيق، بل يشكل لوحة شفافة لا منتهية لا تنتسب لعالم المادة بل إلى مساحات فضائية واسعة تشكله حركة الخطوط العربية وحركة الخطوط الزخرفية، ويدرك الفن الإسلامي التجريدي بالعين والخيال وليس إدراكا باللمس، سواء في الخط العربي أو الزخارف، فقد ظهر التجريد من خلال ثنائية الأبعاد، ولم يظهر التجسيم في الزخارف الإسلامية، وإنما خرج التجريد إلى عالم أعلى من خلال خطوطه المستقيمة والمنحنية إلى ما هو مطلق، وتمثل الحضارة الإنسانية نهجا تراكميا وموروثا فنيا ينساب بازدياد وتطور تراكمي.

تعد الزخرفة عنصرا مهما في العمارة الإسلامية والتي تمثل نظرة إيمانية للكون والوجود، فهي ذات فلسفة تشكل روح الإنسان المسلم ونظرته الدينية، والزخرفة ذات خصائص فنية في الاسلوب والتكوين تشكل الرؤية الفلسفية، ويتمثل أسلوب الزخرفة في الابتعاد عن التجسيد والمحاكاة وتجريد الأشكال الطبيعية إلى خطوط هندسية بسيطة.

تعمل الزخارف والصور الفنية من خلال تمثيل الفكرة القرآنية إلى صورة محسوسة، تحقق مسلم مرهف الإحساس يمتلك قدرات حسية على اكتشاف أسرار القرآن، وتمكينه من استشعار عظمة الله وعظمة القرآن، برؤية فنية جمالية تحقق الإشباع النفسي من الجمال .ولقد ظهر العمق الحسي والفني في نفس المسلم من خلال اللوحات الزخرفية التي ابتكرها وشكلها بطرق إبداعية لا حدود لها، ومثال على ذلك التشكيلات النجمية في الزخرفة الإسلامية والتي تشكلت وتكررت بتشابكات منسجمة ومستمرة، ولم يكن هذا الفن للفن فقط وإنما شكل دلالات رمزية ورسائل إيمانية.

تشكل الزخارف عصب حيوي في الحضارة الإسلامية، وهي من الأفكار الفنية الموروثة والتي ظهرت قبل آلاف السنين في الفن القديم، وقد استخدمت العمارة الإسلامية أشكالا هندسية أساسية استخدمت في الحضارات السابقة أيضا كالمثلث والمربع والشكل

الثماني، والذي ظهر في عمارة الكنائس، ولكن الرؤية والرسالة والمعنى اختلف تبعا للنظرة الإسلامية نحو تحقيق بعد إيماني إسلامي صافي، وتمثل أهم عناصر الزخرفة في الوحدة والتكرار، بمعنى أن الفن الزخرفي كان موجودا في الحضارات السابقة، إلا أنه أخذ في الإسلام نسقا جماليا وأبعادا روحية صقلته بفكر وفلسفة فأصبح من خصائص الفن الإسلامي الرفيع.

وتعد الزخارف عنصرا مهما في العمارة الإسلامية، وهي ذات خصائص فنية في الأسلوب والتكوين بما يشكل رؤية فلسفية تحققت في نفس المسلم، كما تمثل الزخرفة الإسلامية تشكيلا فنيا ابتعد عن التجسيد والمحاكاة، فتحقق من خلال خطوط هندسية بسيطة ابتعدت عن التجسيد الثلاثي وخداع البصر، فتشكلت بتلاعب مبدع للمساحات اللونية النقية ذات وحدات متتابعة الحركة باستمرارية، وبتنوع من الأشكال الهندسية المتداخلة كالمربع والمستطيل ومتعدد الأضلاع والدائرة، بالإضافة إلى استخدام العناصر النباتية المجردة كالأزهار بمختلف أشكالها.

المدلول الفلسفي للوحدات الزخرفية الهندسية

تشكل الزخرفة الإسلامية منبعا فلسفيا تجريديا، شكلها الفنان المسلم بتنوع على مر العصور الإسلامية، حتى أصبحت جزءا مهما من الشخصية الإسلامية الحضارية، وتشكل الزخرفة الإسلامية توافقا بين الشكل والمضمون، تجرد الحياة بشكل هندسي رياضي، بتشكيلات لأفكار فلسفية ومعان روحانية تشكل مضمونها الحي المتدفق عبر الخطوط بتكاثر وازدياد " كأن هناك روحا هائمة هي التي تمزج تلك التكوينات وتباعد بينها ثم تجمعها من جديد، فكل تكوين منها يصلح لأكثر من تأويل يتوقف على ما يصوب عليه المرء نظره ويتأمل منها"(ياسين،2006).

لم تُظهر الحضارة الإسلامية اهتماما بالفن التصويري، وبالتالي خرج الفن الزخرفي التجريدي كحالة وبديل أساسي عن الفنون السابقة، وقد مثل المرتبة الأولى في الفن الإسلامي، والذي تحقق من خلال الزخارف السطحية ثنائية الأبعاد أو ثلاثية الأبعاد كما في المقرنصات.

شكل(1) : النجمة الثمانية والنقوش الإسلامية

وتتمثل الرؤية الفنية عند المسلم بالاتصال ما بين السماء والأرض، وظهرت هذه المعاني الفلسفية باندماج شكلين يمثلان السماء والأرض، بمعنى أنها تشكلت ما بين المادة والروح، فالنجمة الثمانية و الشكل الثماني هو اندماج ما بين مربعين، يشكل المربع الأول (الماء والهواء والنار والتراب)، ومربع آخر يشير إلى الاتجاهات الأربعة (ياسين،2006)، بمعنى هو اندماج بين رمزية المادة ورمزية الروح، أو الفكر الإنساني والمنهج الرباني، وتتشكل الوحدات الزخرفية الهندسية من حركة متتابعة مستمرة، فالنقطة ذات حركة لا نهائية لا تثبت على حال وليس لها بداية أو نهاية، فهي شيء ديناميكي غير ثابت، محققة أن لا شيء ثابت على حاله إلا خالق الخلق قال تعالى" ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام "(سورة الرحمن، آية (27)).

وتمثل الزخرفة حركة منطلقة لا نهائية، فالنقطة تشكل خطا يتحرك بفنية في حلقات ومربعات دون ثبات، فتُلزم هذه الحركة العقل الإنساني نحو طلب الوصول إلى إلمام لانهائي فهي قوة تطلق الخيال إلى آفاق الفضاء اللانهائي الممتد باتجاهاته المختلفة، فيعطي إحساسا وإدراكا بمن هو مالك حياته وروحه غير قادر العقل الإنساني على تخيله وتجسيده هو الله، فيتحقق المعنى الفلسفي الإيماني أن التجريد الإسلامي المتمثل بالزخرفة من خلال خاصية التكرار، يحقق نتاجا جديدا من تراكم الوحدات بطرق مختلفة، فهو تكرار غير ممل ولا رتيب، تكرار يجعل الإنسان يتخيل ويختار ما يشاء من اللوحة الزخرفية، تتابع منفرد للوحدات بتناسق وتناسب رياضي يبعد عنه صورة التشتت والتنافر بتشكيل متنوع في طبيعة الأشكال وطريقة الاستخدام.

التكرار والنسق الزخرفي الإسلامي:

شكل 2: أحد صور التكرار الزخرفي الإسلامي

الطبيعة تعد دورية التغيير، وقد أظهرت العمارة الإسلامية هذه الصفة في العناصر والأفكار الزخرفية بالشكل التالي: يشكل التكرار الزخرفي "التتابع" لوحة فنية يشكل النسق فيها أساسا حيويا بامتلاك للجمال والخيال والنظام، فهي تكتسب القيمة الجمالية النظامية من طبيعة التكوين وليس من طبيعة الأشكال المستخدمة .

النسق الزخرفي هو تصميم تكون أو تشكل من واحد من العناصر الزخرفية المتكررة "الموتيفات" أو أكثر، يتعدد وينظم في تسلسل نظامي) (المالكي،2002م) .يتميز النسق الزخرفي الإسلامي بالشمولية، وليس اتجاها زخرفيا محددا لنمط معماري محدد، وإنما يشكل حالة عامة لأنماط الأبنية المختلفة، وظهر التكرار بشكل غير ممل، فقد ارتبط بريشة الفنان المسلم بكل ثقة، وتميز النسق الزخرفي الإسلامي بالتالي:

بالجزئية والكل وحدة واحدة، والقابلية للتبادل بين الأجزاء المختلفة بنسب وحركات مختلفة، فالوحدة المتكررة هي جزء وكل، تخضع للزمان والمساحة والتعبير، بمعنى أن طريقة التشكيل للوحدات المتكررة تكون إفرازا لخيال الفنان وذوقه.

الامتداد والتوسع اللانهائي، فلا حدود للوحة حتى وإن انتهت بشكل وضعي مادي، فهي دالة للخلود والأبدية للإرادة الربانية، وليس للقيمة الإنسانية المادية الفانية .

سهولة إدراك النسق الزخرفي، مهما كان متسعا أو معقدا من تداخلات وتشابكات لأشكال حسية منفردة، فهو تشكيل من وحدات منفردة يتم إدراكها والإحساس بها، والقدرة عل تثبيتها بالعين قبل الحركة اللانهائية .

الوحدة والتكرار مفهومان تمثلهما الزخرفة الإسلامية بنسق ينتج من الترتيب النظامي، فهو نظام رياضي يعطي معنىً روحياً، يبحث عن المطلق والرؤية الإيمانية للإنسان في حياته المادية.

رمزية الأشكال الهندسية :

لقد ظهر التجريد في الفن الإسلامي كسمة عامة له، وتمثل الزخارف الإسلامية أحد طرق التعبير التجريدي في العمارة الإسلامية، وقد استخدمت بشكل واسع يتسم بالنظام والحيوية في المساحات الداخلية والخارجية للعمارة الإسلامية، تحقيقا لهدف فني وروحي .

وتمثل الزخرفة الإسلامية توافقا بين الشكل والمضمون، وتحقق بعداً فلسفيًّا إيمانيًّا ، وقد ارتقت إلى المرتبة الأولى في فن العمارة الإسلامية لتوافقها مع النظرة الإيمانية ورفضها للتجسيد وصدقها في البحث عن المطلق ومعانٍ غير نهائية في نفس المسلم، وبالتالي حققت الزخرفة الإسلامية بتكويناتها المادية بعدا روحانيا ،شكلت الحالة الجامعة الوسطية بين الشكل والمضمون والمادة والروح حسب التصور الإسلامي، بمعنى أنها لم تنجذب لأحد أقطاب المادة والروح بشكل منفرد، كما حققت هذا التصور كما هو في نفس المؤمن من خلال إيمانه واعتناقه للفكر الوسطي الإسلامي بين المادة والروح.

أما الزخرفة الإسلامية فقد تجسدت على فتحات الأبواب والشبابيك والتي حققت من خلال تتابعها بعداً روحيًّا لما فوق المادة من الاستمرارية اللامحدودة بتحقيق شعور إنساني بوجود قوة عظيمة غير متخيلة هو الله، وبالتالي تفاعلت الحضارة الإسلامية مع الفن فتشكل الحس الفني داخل النفس الإسلامية المؤمنة والتي أظهرته ماديا بالسمو الروحي والمعنى ما فوق المادة، وشكل ذلك إلهاما واتساعا للإحساس بعظمة الخالق تتجلى في مخلوقاته، سواء كان ذلك في اللوحات الطبيعة كالنجوم مثلا أو من خلال ما أحس به الفنان المسلم وأنتجه كفن تتجلى فيه معرفة الله .ولقد تجلى الجمال والفن الإسلامي، في الزخارف الإسلامية حيث تمثل تلك أحد العناصر الرئيسة في العمارة الإسلامية، وتوضح حالة للتصور الفني التجريدي بالمنظور الإسلامي، وسيتم دراستها وتحليل نماذجها لمعرفة مدى تحقيقها لفلسفة الوسطية .

تمثل الأشكال الهندسية المحددة، أشكالا إلهية أولية عالمية لا إنكار لوجودها متفق عليها، وهي ارتباط الشكل بالسماء، وهي معيار وأساس للأشكال المستحدثة الأخرى؛ لذا استخدمت كأشكال هندسية أساسية في الأبنية المقدسة "الدينية" عبر التاريخ المعماري، فالكعبة كمقطع مربع، تشكل رمزا للدين الإسلامي بكماله وتوازنه واعتداله وهو ما يمثله المربع من سكون واستقرار وصلابة، ويعد الشكل المربع ذا اهتمام وتميز لدى الفنان المسلم، وهو شكل للتوازن والتكامل والثبات والاستقرار، ويشكل تماثلا رباعيا عند النقطة المركزية بتقاطع الخطوط الأفقية والعمودية، والمربع أساس المضلعات المتعددة في الزخرفة الإسلامية، أما الشكل الثماني هو اندماج بين مربعين، وذا رمزية لكمال الطبيعة والروح (المالكي،2002م) والمستطيل هو شكل يتبع المربع، بمعنى أنه يشكل التحاما لأجزاء مربعين فهو يشكل من خلال رمزيته امتدادا لرمزية المربع وفقا لنسبه .

ولقد ظهرت الأشكال النجمية في الفن الإسلامي بشكل متنوع واسع ؛ وذلك لارتباط الفنان المسلم بالسماء، وقد ذكرت النجوم في آيات قرآنية كريمة، وشكل هذا دافعاً للفنان المسلم باستخدام التشكيلات النجمية المتنوعة لتعبر عن فكرته وفلسفته الداخلية، والأشكال النجمية هي رمز للبحث الإنساني عن الإله وعن المطلق، كما تحقق ذلك التتابع الزخرفي، فظهرت النجمة السداسية والخماسية والثمانية ، التي تشكل الأكثر استخداما، الناتجة عن اندماج مربعين برمزية السماء والأرض، والعرش الإلهي الذي يحمله ثمانية من الملائكة، أما الدائرة فإنها ترمز للسماء والكون، وهي مصدر للتكوينات التصميمية، فهي محيط يشكل نقطة لانهائية ترتبط بنقطة ثابتة في المركز تشكل الحقيقة، وهي شكل تعبدي يرسمه المسلم في شعائر الحج حول الكعبة.

مفهوم الوسطية في تصميم وبناء قبة الصخرة المشرفة:

تمثل قبة الصخرة في بيت المقدس أحد روائع العمارة الإسلامية، حيث تم بناؤها على يد معماريين مهرة في العصر الأموي عام 691م. تُظهر الفكرة التصميمية لقبة الصخرة استعمال التكوين الحلقي، فهي دائرية التكوين في الفراغ الداخلي يحيطها التكوين الثماني الخارجي، وذات تركيز على المحتوى الداخلي الذي تمثله قبة الصخرة ، وبالتالي فهي ذات قاعدة دائرية أساسية في

التكوين، وقد مثل الشكل الدائري في فكر المسلم بعدا روحيا ، فهو يتعبد تحت سماء صافية واسعة، تكتمل مساحتها الفنية من دائرية الشمس نهارا والقمر ليلا، وهذا البعد الكمالي والروحي للدائرة جعلها المنظم والبنية الشبكية التحتية الأساسية للزخرفة الإسلامية التي تشكل العلاقات لتحافظ على التناسق والتناسب، وفق نظام روحاني متكامل وهي أساس للشبكات النجمية والمربعة.

شكل 3 : تصميم قبة الصخرة المشرفة

كما وتعد قبة الصخرة المشرفة أول تكوين معماري إسلامي يمثل الشكل الثماني المتكون من تداخل مربعين، المربع الأول "يرمز إلى الماء والنار والهواء والتراب، والمربع الثاني يشير للاتجاهات الأربعة"(ياسين،2006)، وتداخلهما يعني أن قوى الله فوق كل قوى الطبيعة. بالإضافة إلى ذلك، عكس البعد الإنساني شكلا ومضمونا أي الحالة ما بين المادية والرمز، حيث يمثل مضمون العمارة الإسلامية تعبيرا أوسع من الوظيفية و التشكيل الفراغي سعيا لتحقيق المتطلبات المادية المحسوسة للفراغ، فهو يشمل ما هو أسمى من المادة المكونات المادية الوظيفية والمتطلبات المعنوية العقائدية، وهذا ما يمكن أن تشكله وتبدعه الزخرفة، التي تمثل عنصرا أساسيا في التشكيل المعماري الإسلامي.

ولقد تم استعمال التشكيلات الزخرفية النباتية في الداخل والخارج لقبة الصخرة بألوان قوية وجريئة. حيث ترمز الزخارف النباتية للفردوس وتعطي شعوراً بالاحتكاك بالطبيعة الخارجية، دون أن تمثل هذه الزخارف رموزا أو إشارات. بالإضافة إلى البعد المكاني والروحي الذي تحقق من خلال البعد الجمالي ذي التأثير الحسي والنفسي بجانب البعد الوظيفي. وقد تم استخدام كتابات قرآنية تذكر بالديانات الأخرى وتؤكد على أن الإسلام هو الدين الأصل، وفيما يتعلق بالزخرفة والتصميم الخارجي لقبة الصخرة يمثل على" أنها مغرقة في الرمزية تصميما وزخرفة ونصوصا"(ياسين،2006).

شكل 4: بعض التصاميم الزخرفية والكتابات القرآنية المستخدمة في قبة الصخرة

وبشكل عام فإن الزخارف والكتابات القرآنية المستخدمة في قبة الصخرة تحمل رمزية وتذكر بسيدنا عيسى وموسى، وخلاصة القول أن هذا الاستخدام للزخرفة النباتية تذكر بالأديان التوحيدية الأخرى لكن ضمن حالة رمزية استخدمت بالمفهوم الإسلامي، بمعنى أن سيدنا موسى والمسيح عيسى مسلمان، أما فيما يخص الشكل الثماني والزخارف الخارجية والنصوص فيها، لربما أنها مثلت رسالة خطاب من المسلمين إلى المسيحين، وهي أن رسالة الله واحدة وأن رسالة سيدنا موسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم والأنبياء جميعا واحدة هي الإسلام، لاسيما أن الشكل الثماني قد استخدم بالمسيحية لكن ليس بنفس التصميم والإبداع المعماري الإسلامي.

نبذة حول مدينة غزة:

تعد مدينة غزة من أقدم المدن في العالم حيث يرجع تاريخ إنشائها إلى حوالي 3000 عام قبل الميلاد. وتتميز مدينة غزة بموقعها الجغرافي المتوسط ما بين قارتي آسيا وافريقيا وهو ما جعلها مركزا تجاريا وممراً للقوافل ما بين مصر والشام. وقد أدي ذلك إلى نمو المدينة اقتصاديا وثقافيا، وظهور العديد من الأبنية والمرافق لخدمة التجار والمسافرين عبر العصور. وقد تعاقب عليها العديد من الحضارات بدءا بالكنعانية ومرورا بالإغريقية، ومن ثم الرومانية وانتهاء بالحضارة الإسلامية، وما شملته من حقب متعاقبة كان آخرها الحقبة العثمانية. وقد كان لهذا التنوع الحضاري الأثر الواضح على تشكيل الملامح العمرانية لمدينة غزة، والتي تطورت على مدى التاريخ مستفيدة من خصائص كل حقبة تاريخية مرت عليها.

تطور المساجد عبر العصور في قطاع غزة:

تُعد المساجد من أهم العمائر الإسلامية التي تعكس وحدة المسلمين، وترابطهم، واتصالهم بالخالق عز وجل من خلال العبادات والشعائر الدينية التي تقام فيها، وهي كذلك رمزاً للطهارة والنقاء والبعد عن زخرف الحياة الدنيا الزائل، والمصالح الشخصية الضيقة. ويستدل على ذلك من حرص النبي صلى الله عليه وسلم عند نزوله واستقراره بالمدينة المنورة على بناء المسجد، ليجمع المسلمين، ويكون بمثابة مركز الإشعاع الديني والثقافي والحضاري للمجتمع. وقد كانً المسجد في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانا للصلاة، والاجتماع، واستقبال الوفود، ومداواة الجرحى، والاستعداد للقتال وغيرها من أمور المسلمين، وهو ما يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك، أن دور المسجد في المجتمع الإسلامي يتعدى بكثير أداء الصلوات المفروضة وبعض الشعائر الدينية فقط ليشمل كافة مناحي الحياة .وبناءً عليه، فقد حرص المسلمون الفاتحون على بناء المساجد في كل مدينة يدخلونها لنشر الإسلام، ولتعليم الناس أمور دينهم، وإبراز الوجه المشرق للدين والحضارة الإسلامية. وهذا ما حدث عند فتح فلسطين على يد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وانتشار الدين الإسلامي فيها، حيث حرص المسلمون على إنشاء مسجد جامع في وسط كل

مدينة يفتحونها ويسمونه بالجامع العمري الكبير نسبة إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، كما حدث في مدن مثل القدس، واللد، وبيسان ويافا، وغزة وغيرها. واستمر بناء المساجد في العهود الإسلامية المتعاقبة التي تلت فترة الخلافة الإسلامية في المدن الفلسطينية مع زيادة عدد المسلمين والتوسع العمراني للمدن .

وكما هو معلوم، فان المساجد ليست ملكا شخصياً لأحد وإنما ملكا عاما لكافة المسلمين، وأطهر البقاع في الأرض، وهو ما يمنحها قدسية عالية وقيمة روحية في نفوس المسلمين. وإلى جانب ذلك فإن للمساجد قيمة معمارية وجمالية تتمثل في تصميمها، وعناصرها المعمارية، والتي حافظت عليها منذ العهد الإسلامي الأول إلى الوقت الحاضر. ورغم التطور في تصميم المساجد مقارنةً بالمسجد النبوي الذي بناه الرسول عليه الصلاة والسلام، والذي كان مربع الشكل ومبنيا من الطين وجذوع النخل ، إلا أن عناصره الأساسية، والتي تتمثل في بيت الصلاة والمنبر والمداخل، بقيت كما هي، وأضيف إليها بعض العناصر الرمزية كالمحراب، والمئذنة، والقباب واستخدم فيها مواد البناء الحديثة والمتوافرة كما في مسجد الخالدي في قطاع غزة.

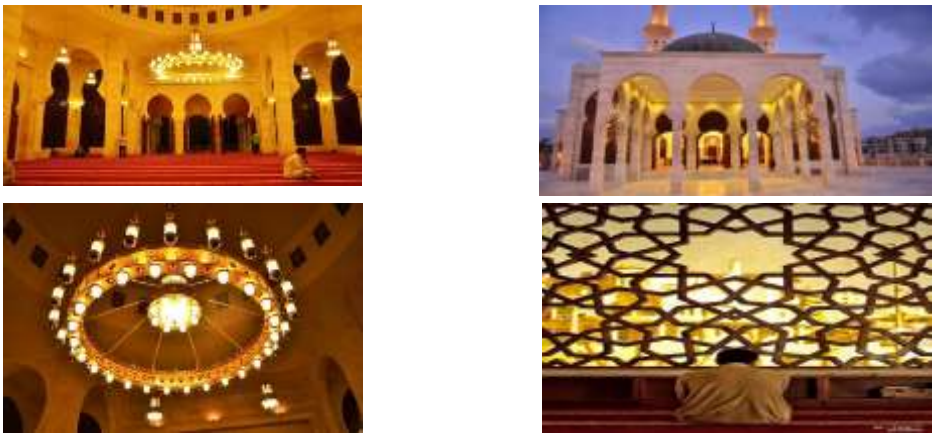

شكل 5: تطبيق مفهوم فلسفة الوسطية في تصميم مسجد الخالدي في غزة

وقد انتشر بناء المساجد في مدينة غزة القديمة كغيرها من المدن الإسلامية، وخاصة في العهد المملوكي ومن ثم العثماني. ويشير المبيض (1995) إلى وجود العديد من المساجد الأثرية في مدينة غزة خلال العهود السابقة، حيث بلغ عددها، حسب كثير من الشواهد والحجارة التأسيسية التي وجدت متناثرة في أماكن متفرقة حوالي سبعون مسجداً غير المزارات المختلفة، وللأسف الشديد لم يتبق من تلك المساجد محتفظا بوظيفته، وبجزء ولو يسير من مبناه الأثري، إلا القليل الذي لا يتجاوز 13 مسجدا. ورغم أهمية المساجد الأثرية المتبقية، إلا أن بعضها يتعرض للإهمال، وبعضها الآخر للتدخلات الخاطئة للحفاظ عليها، وهو ما يهدد بقاءها كرموز معمارية تراثية تعبر عن الحضارة والعمق الإسلامي بغزة.

المساجد الأثرية في مدينة غزة وأهمية الحفاظ عليها:

رغم أهمية المباني والمواقع الأثرية المنتشرة في غزة، إلا أن المساجد الأثرية تعد الأهم من الناحية الدينية والمعمارية للمسلمين. وتنبع تلك الأهمية من قيمتها الدينية كأماكن للعبادة، ولأداء كثير من الشعائر الدينية التي يجتمع فيها المسلمون. وهي بيوت الله في الأرض وأطهر البقاع فيها، ورمزا لوحدة المسلمين، واجتماع كلمتهم، وتوجههم نحو خالقهم عز وجل. وإلى جانب ذلك تتميز المساجد الأثرية باحتفاظها بوظيفتها كأماكن للعبادة منذ إنشائها وحتى اللحظة، بالإضافة إلى احتفاظها بعناصرها المعمارية الأساسية، وهو ما يضيف لها قيمة تاريخية كبيرة، ويجعلها بذلك ترتقي على أي نوع آخر من المباني على اختلاف أنواعها.

تتبع المساجد الأثرية من ناحية إدارية، كغيرها من المساجد بغزة، لوزارة الأوقاف والشئون الدينية التي تقوم على رعايتها وتوفير ما يلزم لقيامها بأداء دورها الديني، بالإضافة إلى الإشراف على أعمال الترميم والصيانة التي تُجرى لها، والتي تقوم إما بتمويلها، أو المساعدة في إيجاد ذلك التمويل من جهات متبرعة. وبسبب نقص التمويل في كثير من الأحيان، تقوم اللجان القائمة على إدارة المساجد بجمع التبرعات من المصلين، أو تلقي بعض الهبات من المحسنين لصيانة المساجد، أو إجراء توسعة لها.

رغم تعداد حوالي سبعين مسجدا وجامعا كان موجودا في غزة حسب المصادر التاريخية والشواهد المعمارية، إلا أن هذا العدد لم يعد قائما في الوقت الحاضر، حيث إن كثيرا منها هدم واندثر منذ زمن طويل، ولغرض تسهيل تحديد وحصر ما تبقى من مساجد أثرية بهدف إجراء هذه الدراسة، فقد تم وضع تعريف للمسجد الأثري على أنه: "المسجد الذي بني قبل سقوط الخلافة العثمانية سنة 1917 في فلسطين، وما زال يستخدم كمسجد، ويحتفظ بمبناه الأثري، أو بجزء منه." هناك الكثير من المساجد الأثرية التي اندثرت ولم يعد لها أثر، رغم ورودها في كثير من المراجع والكتب التي تناولت المساجد الأثرية، ومن أمثلة تلك المساجد: مسجد الشمعة، ومسجد الأيبكي، ومسجد محمد العجمي، ومسجد الوزير وغيرها، والتي اندثرت جميعها ولم يعد لها أثر، وبني مكانها

مساجد حديثة، وهناك بعض المساجد التي تحولت وظيفتها إلى وظيفة أخرى غير العبادة، مثل مسجد القلعة أو مسجد دار السعادة المقابل لقصر الباشا، والذي تحول إلى مقر لإدارة تحفيظ القرآن التابعة لوزارة الأوقاف بغزة، ولم تعد تقام فيه الصلوات الخمسة.

جدول (1): توزيع المساجد الأثرية بغزة على أحياء المدينة القديمة

	الحي	المسجد	الحقبة	تاريخ التأسيس (م)
1	حي الدرج	المسجد العمري الكبير	الخلافة الراشدة	القرن السابع
		مسجد الشيخ زكريا	مملوكي	القرن الرابع عشر
		مسجد الشيخ خالد	مملوكي	القرن الرابع عشر
		مسجد السيد هاشم	عثماني	القرن الرابع عشر
		مسجد محمد المغربي	مملوكي	غير معروف
2	حي الزيتون	مسجد الشيخ علي العجمي	مملوكي	غير معروف
		مسجد كاتب ولاية	عثماني	القرن السادس عشر
		مسجد عثمان قشقار	عثماني	غير معروف
3	حي الشجاعية	مسجد بن عثمان	مملوكي	القرن الخامس عشر
		مسجد المحكمة	مملوكي	القرن الخامس عشر
		مسجد القزدمري	مملوكي	القرن الرابع عشر
		مسجد السيدة رقية	عثماني	غير معروف
4	حي التفاح	مسجد علي بن مروان	مملوكي	القرن الرابع عشر
المصدر: الحقبة التاريخية وتاريخ التأسيس				

ويعد المسجد العمري ومسجد السيد هاشم بغزة أهم وأبرز المساجد الأثرية وأقدمها. حيث يعود تاريخ تأسيس المسجد العمري الأول كمسجد إلى عهد نسب إليه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، والذي ينسب إليه المسجد في تسميته. وقد تعرض للهدم والتدمير ومن ثم إعادة الإنشاء أكثر من مرة، إلا أن البناء الحالي للمسجد يعود في معظمه إلى الحقبة المملوكية والعثمانية، وما يُميزه بالإضافة إلى تاريخه الطويل، هو احتفاظه بكافة عناصره المعمارية والزخرفية الأثرية دون إضافات أو تعديات ملحوظة تشوهه، أو تخفي من سماته التراثية.

مفهوم الوسطية في تصميم وبناء مسجد السيد هاشم في قطاع غزة :

يعد أحد أكبر المساجد الأثرية وأهمها كونه قديم التصميم، ويعتقد أن جد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، مدفون به ، وتعود أبنية هذا الجامع للعصر العثماني. ويبدو المسجد الذي يقع وسط مدينة غزة القديمة وتبلغ مساحته 2400 متر مربع، يتكون من عدة قباب محيطة بالمئذنة التي أظهرت المسجد بصورة منمقة، خاصة مع وجود النوافذ الزخرفية والمحفورة في جدران المئذنة ، وهو ما يدلل على رقي مستوى العمارة الإسلامي منذ القدم. تقع بوابة المسجد الرئيسية في الجهة الجنوبية من المسجد، وتتكون الساحة ذات المساحة الكبيرة التي تتوسط المسجد من الرخام. وقد دفن السيد هاشم بن عبد مناف - جد الرسول (ص) في كهف بجانب سور مدينة غزة. ثم أحيط القبر بالجدران تعلوها رقبة مُثمنة " ثمانية الشكل ". وأقيمت مقبرة في وقتٍ لا حق إلى جانب قبر " السيد هاشم " وامتدت لفترةٍ طويلة من الزمن، فيما أزيلت مع تقادم السنين .

وفي عام 1855م، حيث العهد العثماني، قرر السلطان عبد الحميد الأول إنشاء بيت للصلاة، فيما ألحق بالبيت الرواق الجنوبي والغربي، وحرص العثمانيون على نمط مميز في فن عمارة المساجد خاصة في نظام التسقيف، وهو أن تلحق بالقبة الرئيسة في المسجد عدة قباب أصغر منها، بحيث تحيط بالمسجد من كل النواحي.. وبني المسجد وفق الطراز المملوكي بنظام العقود " الأقواس " والتي أُنشئت من خلال تبادل الحجارة الرخامية الحمراء والبيضاء، فضلاً عن مفتاح العقد والمصنوع من الحجر الرخامي الأسود، والذي يتوسطه من نقطة رأس العقد. وبيت الصلاة هو شبه مربع ومغطى بعقود متقاطعة، وبه محراب يتجه نحو القبلة , ومنبر، ويتربع في الجهة الشرقية من المسجد. يوجد أروقة تحيط بالساحة من الشمال والجنوب والغرب، وتمتد على

طول الأروقة أعمدة رخامية، وزيّن تاج العمود بزخرفة محفورة من أوراق نبات الأكانتس "الخرشوف". واتصلت الأعمدة ببعضها من خلال العقود " أقواس " حملت فوقها القباب الملحقة بالقبة الرئيسية للمسجد والتي يبلغ عددها تسعة عشر.

وتبنى العقود بثلاثة طرق إما من خلال تشبيك الحجارة ويتم حملها على أعمدة رخامية كورنثية الطراز، أو أن تكون محمولة على الجدران، أو محمولة على دعامات استنادية، وهذا النمط قد استخدم في بناء مسجد السيد هاشم، الذي وُجد به 13 عاموداً.
وتحيط بالأروقة الثلاثة غرف كانت تستخدم كمدرسة لتعليم المذاهب، وكانت تشتمل تلك الغرف بين جدرانها على مكتبة عامرة بأمهات الكتب والمخطوطات ولكنها اندثرت أثناء الحرب العالمية الأولى، فيما تستخدم الغرف الموجودة حالياً لخدمات المسجد وإدارته.
أما طريقة بناء مئذنة المسجد التي تعلو من بيت الصلاة، فهي تعبر عن نمط بناء المآذن المملوكية، وتتسم قاعدتها بأنها مربعة الشكل، ثم حورت لتكون ثمانية الشكل وذلك بكسر زوايا المئذنة بشكل معماري لطيف لترتفع المئذنة والتي تتكون من عدة أقسام، وكل قسم من تلك المئذنة قد زُخرف بشكل من أشكال الزخرفة المسننة، وهى عبارة عن إطارات مسننة محفورة بالحجر الرملي، وتعلوها عتبة من الرخام الأبلق " الأبيض والأسود " لتخفف من عملية الضغط.

وتحتوي المئذنة على بعض النوافذ المغلقة تم زخرفتها بنقوش مسننة، وفي داخلها دوائر زخرفت بشكل هندسي، فيما أعطى النقش على الحجر جمالية معينة للمئذنة. وأسفل قاعدة المئذنة، وضعت أعمدة رخامية بشكل أفقي وتسمى الأعمدة السابحة، ووظيفتها تدعيم وتقوية الجدار الذي يحمل المئذنة، حيث إنه أحياناً يصل سمك الجدار إلى 1 م، وهذا دلالة معمارية لتقوية وتدعيم المئذنة من القاعدة.
في نهاية الرواق الغربي إلى الزاوية الشمالية الغربية من المسجد حيث يتربع ضريح السيد هاشم داخل غرفة هي الأروع في التصميم المعماري من الداخل كونها مربعة الشكل وتعلوها قبة كبيرة أصغر نسبياً من القبة الرئيسية للمسجد.
وفي الرقبة التي تصل جدران غرفة الضريح بالقبة تفتح ثماني نوافذ في الجدار الذي يبلغ سمكه ما يزيد عن 90 سم . ويعود سبب سماكة تلك الجدران إلى خاصية مهمة جداً، وهى تحمل الضغط لأنها تحمل قبة ضخمة وكون الغرفة بأكملها لا تحتوي على أعمدة.
ومن داخل غرفة الضريح" الجدران يجب أن تكون سميكة، لأنه لا يصلح أن يتم إنشاء قبة فوق جدار ذي سمك رفيع، والجدار السميك يتحمل وزن القبة". وتلك الجدران لا تحتوي على أعمدة تسهم في تثبيتها، وإنما كانت عملية التصميم من خلال تشبيك الجدران ببعضها، وهذا يستلزم أن يكون سمك الجدران من 100 سم – 120 سم.

أما العقود التي تعلو زوايا جدران الغرفة فكان لها أهمية كبرى، تكمن في تحويل أعلى جدران الغرفة ذات الشكل المربع إلى الشكل الثماني لتسهيل عملية بناء القبة المثمنة الشكل. يعد هذا تفوق معماري كبير ومهم في فن العمارة الإسلامي والفنان والبنّاء المسلم الذي صمم هذا الشكل". وفي الجانب الأيمن من الغرفة يقع ضريح السيد هاشم وكانت جدران الغرفة في وقت سابق من الزمان قد كُسيت بالرخام من قِبل طائفة هنود"البهرة". ويعتقد هؤلاء " البهرة " أن لهم صلة نسب وأصول مع قبيلة " قريش " ، ولهذا حاولوا أن يقدسوا ويقدروا ضريح السيد هاشم والحفاظ عليه من خلال إحاطة جدران غرفة الضريح بقطع ضخمة من الرخام.
إلا أن تلك الألواح الرخامية ألقت بظلالها على جدران الغرفة المصنوعة من الحجر الرملي، وتسببت بأضرار سلبية ؛ وذلك لأن الرخام مادة عازلة وصماء وقوية جداً بالنسبة للحجر الرملي الذي بحاجة إلى أن يُخرج الرطوبة من داخله، مما يساعد الرخام في منع ذلك، فيتسبب في اهتراء الحجر، وفق ماأوضحته البيطار. لا سيما أن الرطوبة التي بداخل الحجر الرملي هي بحاجة إلى الخروج من داخله، إذ إنها كانت تصطدم بالألواح الرخامية فترتد إلى الحجر ويسبب ذلك اهتراء الحجر الأثري وتآكله، إلى أن تم إزالة تلك الألواح الرخامية الصماء ضمن عمليات الترميم التي جرت مؤخراً على أجزاء معينة من المسجد. وكانت وزارة الأوقاف والشؤون الدينية قد افتتحت المسجد التاريخي " السيد هاشم بن عبد مناف " في أواخر شهر سبتمبر 2009؛ وذلك بعد عمليات ترميم استغرقت 3 سنوات .غير أن الحصار الذي يفرضه الكيان الإسرائيلي منذ 4 أعوام، حال دون إنشاء تغطية متحركة لفناء المسجد.

شكل 6: بعض التفاصيل المعمارية الموضحة لمفهوم فلسفة الوسطية لمسجد السيد هاشم في غزة

النتائج:

تبحث هذه الدراسة بفلسفة الوسطية والتجريد في العمارة الإسلامية، كما تناقش فكر تطبيق فلسفة الوسطية كأسلوب معماري في العمارة الإسلامية عن طريق التصميم المعماري والزخارف الهندسية كحالة دراسية من خلال البحث عن الفكر المعماري المستمد من الفلسفة الوسطية ومن منهجية الفن المتمثلة بتلك الوحدات الزخرفية الهندسية الإسلامية والتي تمثل سمة للعمارة الإسلامية التي تشكل المحيط الثقافي لنا كأروع مراحل الإنتاج المعماري الإنساني، وهدفت هذه الدراسة إلى إيجاد أسلوب معماري معاصر أو وضع الأسس لذلك الأسلوب على الأقل، وينبع ذلك من منهجية معاصرة مرنة للفكر الإسلامي، وبالتالي تحقيق الاستدامة في الفهم المعماري الإسلامي. ويمثل البحث جزءا نظريا تحليليا مختصاً بالفكر المعماري من المشروع الحضاري الإسلامي، كما يعكس بعدا فنيا وعمليا نحو الشخصية الإسلامية ذات الخصائص والتركيبة الحيوية الجامعة المنفردة بطبيعتها. وتخلص الدراسة إلى أن الوحدات الزخرفية الإسلامية قد حققت حالة منسجمة وجامعة للمادة والروح كما في قبة الصخرة ومسجد السيد هاشم، وقد مثلت الوحدات الزخرفية الإسلامية القاعدة الفنية والتي استمد من خلالها المعماري والفنان العناصر التشكيلية للأسلوب المعماري والتي تمثلت بالوحدة والاستمرارية كحالة طبيعية في الكون والحياة والإنسان من خلال الحركة والنظام، وقد عكست هذه العناصر بتكوين خطي شبكي يمثل محاور الحركة للكتل المعمارية، ضمن التكرار الحيوي كظاهرة عامة للفن الزخرفي الإسلامي وكحالة مرنة تعكس الديناميكية والاستمرارية نحو اللامحدود تمثيلا للرسالة الرمزية بالتوجه نحو الخالق الغير متخيل وغير مجسد. وقد خرج البحث بمجموعة من التوصيات والنتائج، والتي لا تتركز نحو العمق الفلسفي المعماري فقط، وإنما يمكن أن تكون تلك التوصيات نحو التوجهات الفنية الأخرى كالنحت والتصوير .... الخ، وبمعنى أن تخرج هذه التوجهات من خلال القالب الإسلامي حيث يعكس مدى التمازج والتقارب بين الإسلام بنظرته المعاصرة المستقبلية وبين الفن بتخصصاته المختلفة. ونوصي بأن يكون هناك دراسات متنوعة ومتعمقة في المجالات التطبيقية والفنية المختلفة الأخرى، نحو الفهم الصحيح للمشروع الإسلامي الحضاري الذي يتسم بالوضوح والقوة والفن.

قائمة المصادر والمراجع

إبراهيم، عبد الباقي: مشوار البحث عن أصول العمارة في الإسلام. سيرة ذاتية. 2000م .

الراشد، محمد أحمد: أصول الإفتاء والاجتهاد في نظريات فقه الدعوة الإسلامية. الجزء الثاني .

عمارة، محمد: الإسلام والفنون الجميلة. الطبعة الثانية. القاهرة: دار الشروق .2005م .

عمارة، محمد: معالم المنهج الإسلامي. سلسلة المنهجية (3). الطبعة الأولى. فيرجينيا الولايات المتحدة الأمريكية: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.1991م .

غاردر، جوستاين: عالم صوفي. رواية حول تاريخ الفلسفة. الطبعة الثانية. السويد: دار المنى. 1996م .

قطب، محمد: الإنسان بين المادية والإسلام. دار أحياء الكتب العربية. عيسى البابي الحلبي وشركاه .

المالكي، قبيله فارس: الهندسة والرياضيات في العمارة، دراسة في التناسب والمنظمات والمنظومات التناسبية. الطبعة الأولى. عمان: دار صفاء للنشر والتوزيع.2002م .

ياسين، عبد الناصر: الرمزية الدينية في الزخرفة الإسلامية. دراسة في ميتافيزيقيا الفن الإسلامي. الطبعة الأولى. القاهرة: زهراء الشرق.2006م.

شحادة، زياد محمد، أثر التصميم العمراني على تفعيل دور المساجد في قطاع غزة باستخدام نظم المعلومات الجغرافية. 2010م.

المبيض، سليم عرفات، البنايات الأثرية الإسلامية في غزة وقطاعها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر. 1995م.